

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٤٣٢ : ليلة القدر .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٣-٠٣-١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة الأولى:

الحمد لله ثم الحمد لله ، الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ؛ وما توفيقي ولا اعتصامي ولا توكلّي إلا على الله . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ إقراراً بربوبيته وإرغاماً لمن جدد به وكفر . وأشهد أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ؛ رسول الله سيد الخلق والبشر ؛ ما اتصلت عينٌ بنظرٍ أو سمعت أذنٌ بخبر . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ؛ وعلى آله وأصحابه ؛ وعلى ذريته ومن والاه ومن تبعه إلى يوم الدين . اللهم ارحمنا فإنك بنا راحم ؛ ولا تعذبنا فإنك علينا قادر ؛ والطف بنا فيما جرت به المقادير ؛ إنك على كل شيء قدير . اللهم علمنا ما ينفعنا ؛ وانفعنا بما علمتنا ؛ وزدنا علماً ؛ وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ؛ وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ؛ واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ؛ وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

تفسير كلمة القدر :

أيها الأخوة الأكارم ؛ نحن في الجمعة الأخيرة من رمضان ؛ وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن في العشر الأخير تلمس ليلة القدر . وفي القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾

[سورة القدر : ١-٥]

كلمة في هذه السورة هي مركز الثقل فيها ؛ إنها كلمة : " القدر " القدر : الحرمة ؛ والوقار ؛ والمنزلة ؛ يقال : له عندي قدرٌ ؛ وجمع قدر أقدار ؛ والقدر العظمة والشرف .

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾

[سورة القدر : ١]

ما معنى كلمة : القدر في هذه السورة الجليلة ؟ ربما فهمنا معناها من آية أخرى ؛ لأن القرآن كما وصف في القرآن بأنه مثاني ؛ أي كل آية تتثنى على أختها فتفسرها ؛ قال تعالى :

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾

[سورة الزمر : ٦٧]

ربما فهمنا من كلمة " القدر " كما وردت في المعاجم ؛ ومن استخدام هذه الكلمة كما وردت في القرآن ؛ أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما تعرّف إلى الله ؛ وحينما توجه إليه ؛ وحينما أمضى

الليالي ذوات العَدَد وهو في غار حراء ؛ يفكر في خلق السموات والأرض ؛ ويتطلع إلى عظمة الله عز وجل ؛ حينما قَدَّرَ ربه حق قدره ؛ استحق - وهذا يعلم الله عز وجل لأن الله سبحانه وتعالى يصطفي أنبيائه على علم - أن يُنزلَ عليه القرآن .

أيها الأخوة الأكارم ؛ أنت مخلوقٌ من أجل أن تعرف الله . .

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾

[سورة الطلاق: ١٢]

هذه اللام لام التعليل ؛ أي إنَّ علَّة وجودك على وجه الأرض أن تتعرَّفَ إلى الله عز وجل ؛ لأن الماء من أجل التراب ؛ والتراب من أجل النبات ؛ والنبات من أجل الحيوان ؛ والحيوان من أجل الإنسان ؛ والإنسان لمن ؟ من أجل مَنْ ؟

علة وجود الإنسان على وجه الأرض التعرف على الله :

أيها الأخوة الأكارم ؛ سخر للإنسان ما في السموات وما في الأرض ؛ الكون كلُّه مسخرٌ للإنسان ؛ والإنسان خُلِقَ ليعبد الله عز وجل ؛ ليتعرف إليه أولاً ؛ وليطبعه ثانياً ؛ وليسعد بقربه ثالثاً .

العبادة أيها الأخوة فيها جانبٌ تعرُّفي - جانبٌ إدراكي - وفيها جانبٌ سلوكي ؛ وفيها جانبٌ جمالي ؛ فإذا عرفته ؛ والتزمت أمره ؛ وسعدت بقربه ؛ هذا هو الهدف أيها الأخوة .
يا أيها الأخوة الأكارم ؛ بعيداً . . لو أننا اقتربنا من عموم اللفظ الذي وردت فيه هذه السورة ؛ هناك خصوص السبب ؛ وهناك عموم اللفظ ؛ فالإنسان إذا تعرَّفَ إلى الله عز وجل ؛ والكون بين يديه ؛ في القرآن الكريم آياتٌ كثيرةٌ جداً إلى درجة أنها ربَّما شغلت حيزاً كبيراً من القرآن الكريم تتحدث عن الكون ؛ والآيات التي تتحدث عن العقل والتفكير والتذكُّر تقترب من ألف آية ؛ كل هذا من أجل أن نعرف الله عز وجل ؛ فإذا عرفناه أيُّ قدرنا ربنا ؛ عندئذٍ يمكن أن نُحقِّق وجودنا ؛ يمكن أن نحقق الهدف الذي من أجله خُلِقنا .

يا أيها الأخوة الأكارم ؛ إذا عرفت قدر ربك استحققت أن يُعلي الله منزلتك ؛ الإنسان إذا بقي في طعامه وشرابه ؛ وبيته ومتاعه ؛ وعمله ومصالحه بقي في مرتبةٍ دُنيا ؛ أما إذا خرج عن حاجاته الدنيوية ؛ وعن أهدافه القريبة إلى أهدافٍ نبيلةٍ بعيدة ؛ إلى معرفة الله عز وجل ؛ عندئذٍ يُعلي الله قدر المؤمن ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام رفع الله له ذِكْرَهُ .

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾

[سورة الشرح : ١-٤]

يا أيها الأخوة الأكارم ؛ لستُ بصدد تفسير سورة القدر ؛ ولكن بعض النفحات الإيمانية التي تحوم حول هذه السورة ؛ الإنسان حينما قال الله عز وجل :

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾

[سورة القدر : ٢-٣]

حارّ العلماء في هذه الأشهر الألف ؛ يا ترى الرقم هو المقصود أم المقصود هو التكاثر ؟ على كل لو قسّمت ألف شهرٍ على أشهر السنة ؛ لأصبحت هذه الأشهر الألف ما يزيد عن ثمانين عاماً ؛ وهذا هو عمر الإنسان ؛ أي إنَّ عمر الإنسان كله من أجل ليلة القدر ؛ من أجل أن تعرف الله ؛ إن عمر الإنسان كله يُلخصُ بليلةٍ واحدة ؛ فإذا قدرّت الله عز وجل حققت وجودك ؛ وأديت الأمانة؛ وعرفت الرسالة ؛ أما إذا عاش الإنسان تائهاً وغافلاً ؛ لو عاش مئةً وخمسين عاماً ؛ فعمره تافهٌ لا قيمة له .

يا أيها الأخوة الأكارم ؛ مثلٌ بسيطٌ أضعه بين أيديكم : لو أن جرّاحاً من جرّاحي القلب المشهورين في العالم ؛ أتى إلى زيارة القطر ؛ وخفّ لاستقباله عددٌ من الاختصاصيين في أمراض القلب ؛ وكان في رُدّهة المطار ما يزيد عن ألف إنسان ؛ من الذين يقدرّون هذا الاختصاص العالي ؟ من عرفوا قيمة اختصاصه ؛ هناك في صالة المطار عشرات ؛ بل مئات؛ بل ألوف لهم اختصاصاتٌ شتى ؛ ولكن الذين يعرفون قدر هذا الطبيب الجراح الأول هم أطباء القلب أنفسهم ؛ فلذلك متى نُقدّر ؟ هذا السؤال : متى نقدر ؟ إذا عرفنا . فالمعرفة سبيلٌ للتقدير ؛ لا تقدير من دون معرفة ؛ اعرف تقدر ؛ إذا قدرّت تطيع ؛ إذا أطعت تسعد ؛ كأنها مُعادلاتٌ رياضية ؛ أي لن تسعد بالله إلا إذا اقتربت منه ؛ ولن تقترب منه إلا إذا أطعته ؛ ولن تطيعه إلا إذا قدرّته حقّ قدره ؛ ولن تقدّره حقّ قدره إلا إذا عرفته ؛ ولن تعرفه إلا من خلال آثاره . لذلك هذا الكون كله مظهرٌ لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى ؛ وفي الأرض آياتٌ للموقنين . فيا أيها الأخوة الأكارم ؛ أي شيء خلقه الله عز وجل له هدفان كبيران ؛ هدفٌ أكبر من هدف ؛ الهدف الأول : أن يكون هذا الشيء بدقّة صنعته ؛ وإحكامه ؛ وروعته ؛ ودقته دليلاً إلى الله عز وجل ؛ لقد نظر النبي عليه الصلاة والسلام إلى القمر أو إلى الهلال فقال :

((هلالٌ خيرٌ ورُشدٌ))

[من الأذكار النووية عن قتادة]

إنه خيرٌ لي ؛ أعرف به عدد السنين والحساب ؛ لكنه يُرشدني إلى رب العالمين ؛ فالهدف الأكبر أن تتخذ من الآيات التي بثّها الله في الأرض والسماء وسائلٍ لمعرفة الله عز وجل ؛ والهدف الثاني : أن تنتفع به ؛ ولكن الهدف الثاني ينتهي عند الموت ؛ بينما الهدف الأول يستمر معك إلى أبد الأبدين .

إذا العُمُر كله من أجل أن تعرف الله ؛ العمر كله ملخصٌ بليلةٍ واحدة ليلة القَدَر؛ الليلة التي تُقَدَّر الله فيها حقَّ قَدْرِهِ ؛ فإذا قدرته حق قدره أعلى منزلتك ؛ ورفع شأنك ؛ وعرفت قيمة إنسانيتك ؛ وتجاوزت المستوى البهيمي الذي يعيشه من غفلوا عن رب العالمين.

ليلة القدر هي هدف الإنسان في الحياة :

يا أيها الأخوة الأكارم ؛ الذي يعيننا في هذه الخطبة هو أن ليلة القدر هي هدف الإنسان في الحياة ؛ ولكن القَدْر الذي ذكره الله عز وجل لن يكون إلا عن طريق المعرفة ؛ فيمكن أن نقول أيها الأخوة إن العلم هو الطريق الوحيدة إلى الله ؛ وليس هناك طريق آخر . . " إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ؛ وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم ؛ وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم " . العلم هو الطريق الوحيدة إلى الله ؛ العلم هو الطريق الوحيدة إلى سعادة الدنيا والآخرة . فالجهل أعدى أعداء الإنسان ؛ والجاهل يفعل بنفسه ما لا يفعله عدوه به . ولكن أي علم هذا ؟ كل إنسان درس اختصاصاً ؛ ونال شهادةً ؛ ووضعها في غرفة الاستقبال ؛ هل يعد عالماً أو يحقق الهدف من هذا العلم ؟ الإمام الغزالي رحمه الله تعالى له في هذا الموضوع رأيٌ حصيف ؛ يرى هذا الإمام الجليل أن العلم أنواعٌ ثلاثة ؛ علمٌ بأمر الله ؛ وعلمٌ بخلق الله ؛ وعلمٌ بالله . فالعلم بخلقه ؛ هذه العلوم المادية التي برع بها الغرب أياً برع ؛ علوم الفيزياء والكيمياء ؛ والرياضيات والفلك ؛ والجغرافيا والتاريخ ؛ علوم النفس والاجتماع ؛ علوم الذرة والكيمياء العضوية والكيمياء الفيزيائية ؛ وما إلى ذلك ؛ هذا الكون الذي أبدعه الله عز وجل وأبدعه وفق نظامٍ دقيقٍ دقيق ؛ أبدعه وفق مبدأ سببية ؛ والغائية ؛ وعدم التناقض ؛ فالعلماء حينما درسوا الظواهر المادية ؛ كشفوا علاقات ثابتة هي القوانين ؛ وهذه القوانين من رحمة الله بنا أننا من خلالها نتعامل مع المادة تعاملًا مُريحاً ؛ فكل مادة لها خصائص ؛ وكل مادة مع أختها لها علاقات ثابتة ؛ العلم بخلق الله عز وجل ؛ هي العلوم المادية العصرية التي برع بها الغرب .

العلم الذي يوصل إلى الله و يحمل الإنسان على طاعته هو العلم بالله :

ولكن يا أيها الأخوة الأكارم ؛ هل هذا هو العلم الذي أراد الله عز وجل حينما قال الله عز وجل:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾

[سورة فاطر : ٢٨]

هل عنى ربنا جلّ جلاله هؤلاء العلماء الذين برعوا في العلوم المادية العصرية ؟ كم من عالمٍ له حجمٌ كبيرٌ كبير يشرب الخمر ؟ كم من عالمٍ له حجمٌ كبيرٌ كبير لا يعتقد بالأديان ؟ فيا أيها الأخوة الأكارم ؛ العلم الذي أشار إليه الإمام الغزالي هو : علمٌ بخلقه ؛ وعلمٌ بأمره . فقد تدرس الشريعة دراسةً دقيقةً ؛ والشريعة علومٌ منوعةٌ كثيرة ؛ علومٌ دقيقةٌ دقيقة ؛ فيها تفاصيل

وجزئيات ؛ تحتاج إلى عمرٍ مديد وإلى جهدٍ كبير ؛ العلم بأمره علمٌ أقرب إلى الله من أيِّ علمٍ آخر ؛ ولكن هل هذا هو العلم الذي أراده الله عز وجل ؟ إنك لن تُطَبِّق الأمر إلا إذا عرفت الأمر ؛ إنك لن تتصاع إلى أمر الله إلا إذا عرفت الله ؛ لأن الله عز وجل يقول :

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

[سورة فاطر : ٢٨]

و "إنما " أداة حصر وقصر ؛ فالعلماء وحدهم هم الذين يخشون الله عز وجل ؛ لذلك الغزالي رأى أن العلم الذي ورد في القرآن الكريم العلم المُنجي ؛ العلم الذي يرفع قَدْرَ صاحبه ؛ العلم الذي يوصل إلى الله عز وجل ؛ العلم الذي يحملك على طاعة الله ؛ العلم الذي ورد في الحديث الشريف في مواطن كثيرة هو العلم بالله ؛ هو أن تتعرف إلى الله .

والله سبحانه وتعالى كما ورد في القرآن الكريم لا تتركه الأبصار ؛ فكيف نتعرف إليه ؟ الأقدام تدل على المسير ؛ والماء يدل على الغدير ؛ أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟

يا أيها الأخوة الأكارم ؛ الإمام الغزالي أوردَ تفصيلات أخرى فقال : العلم بخلق الله علمٌ يستقرّ في الدماغ أو في الفكر البشري ؛ ولا علاقة له بالذات ؛ قد تكون النفس متدنيةً في مطامحها ؛ ودماغ صاحبها محشوٌ علماً دقيقاً . والعلم بأمره يستقر في الدماغ ؛ ولا علاقة له بالذات ؛ وقد يحمل الإنسان أعلى شهادةٍ في أمرِ الله عز وجل وليس مسلماً ؛ وربما منح أعلى شهادة في الجامعات الغربية وهو ليس من المسلمين . ولكن العلم الذي يسمو بالذات ؛ العلم الذي يرقى بالذات إلى الله عز وجل ؛ العلم الذي يسري في النفس فيهدبها ويؤدبها ؛ العلم الذي يُسعد الإنسان هو العلم بالله . لماذا ؟ لأن العلوم ؛ علوم الخلق ؛ وعلوم الأمر ثمنها المدارس ؛ يكفي أن تقرأ ؛ وأن تفهم ؛ وأن تحفظ ؛ وأن تؤدّي الامتحان حتى تنال الشهادة ؛ ولكن العلم بالله يقتضي المجاهدة ؛ ليس المدارس ؛ المجاهدة أن تحمل نفسك على طاعته ؛ أن تجاهد في سبيله نفسك وهواك ؛ أن تضبط جوارحك ؛ أن تضبط لسانك ؛ أن تضبط عَيْنَكَ ؛ أن تضبط أذُنَكَ ؛ إذا ضبطت الجوارح شعرت أنك قريبٌ من الله عز وجل ؛ إذا ضبطت حركاتك وسكناتك شعرت أن الله يحبك ؛ عندئذٍ يتجلّى الله عليك بنوع من التجلّي ؛ فيزيدك معرفةً به وقرباً منه .

فيا أيها الأخوة الأكارم ؛ العلم بالله ثمنه المجاهدة ؛ والعلم بخلقه وبأمره ثمنه المدارس ؛ والمدارس تستقرّ في الدماغ ولكن المجاهدة تنتهي بالإنسان إلى سمو في نفسه ؛ وتهذيب في مشاعره ؛ وانضباط في سلوكه .

العلم بالله يسمو بكل تفاصيل حياة الإنسان :

لذلك يا أيها الأخوة الأكارم ؛ ورد في صحيح البخاري وصحيح مسلم أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين))

[البخاري عن حميد بن عبد الرحمن]

أَيُّ أَنْ الْخَيْرِ كُلِّهِ إِذَا فَفَهَتْ فِي دِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ وَرَبَّمَا كَلِمَةَ الْفَقْهِ بِمَعْنَاهَا الْمَعَاوِرَ : مَعْرِفَةَ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ . وَلَكِنْ مَعْنَاهَا الَّذِي وَرَدَ فِي السُّنَّةِ أَعْمَقُ بِكَثِيرٍ مِنْ مَعْرِفَةِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ ؛ مَعْنَى كَلِمَةِ الْفَقْهِ فِي السُّنَّةِ أَنْ تَفْهَمَ حَقِيقَةَ الدِّينِ ؛ تَفْهَمُ سِرَّ التَّكْلِيفِ ؛ أَنْ تَفْهَمُ سِرَّ وَجُودِكَ .

((من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين))

[البخاري عن حميد بن عبد الرحمن]

إِذَا إِذَا عَرَفْتَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ؛ وَعَرَفْتَ سِرَّ وَجُودِكَ ؛ وَعَرَفْتَ رِسَالَتَكَ فِي الدُّنْيَا ؛ وَعَرَفْتَ مِنْ أَيْنَ ؟ وَإِلَى أَيْنَ ؟ وَلِمَاذَا ؟ إِذَا عَرَفْتَ هَذِهِ الْكُلِّيَّاتِ الْكُبْرَى كُلَّ جُزْئِيَّاتِ حَيَاتِكَ تَتَسَجَّمُ مَعَ هَذِهِ الْكُلِّيَّاتِ ؛ كُلَّ التَّفَاصِيلِ تَخْدُمُ هَذِهِ الْكُلِّيَّاتِ ؛ الْإِنْسَانُ فِي حَيَاتِهِ كَلِّيَّاتٌ وَجُزْئِيَّاتٌ ؛ بَيْتُهُ وَزَوْاجُهُ ؛ وَعَمَلُهُ وَكَسْبُ رِزْقِهِ ؛ وَإِنْفَاقُ مَالِهِ ؛ وَقَضَاءُ إِجَازَتِهِ وَلِهَوَاهُ ؛ وَعِلَاقَتُهُ بِأَوْلَادِهِ وَأَهْلِهِ وَجِيرَانِهِ ؛ وَطَرِيقَةُ كَسْبِ رِزْقِهِ وَإِنْفَاقِ مَالِهِ ؛ هَذِهِ جُزْئِيَّاتٌ ؛ إِذَا عَرَفْتَ الْكُلِّيَّاتِ وَظَفَّتْ كُلُّ هَذِهِ الْجُزْئِيَّاتِ لِتَحْقِيقِ الْهَدَفِ الْأَمْتَلِ مِنْ وَجُودِكَ . فَلِذَلِكَ زَوَاجُ الْمُؤْمِنِ هَادِفٌ لَيْسَ لِلْمَتْعَةِ ؛ عِلْمُ الْمُؤْمِنِ هَادِفٌ لِنَفْعِ الْمُسْلِمِينَ لَيْسَ لِكَسْبِ الْمَالِ فَقَطْ ؛ كَانَ السَّلْفُ الصَّالِحُ إِذَا فَتَحُوا حَوَانِيَتَهُمْ دَعَا رَبَّهُمْ وَقَالُوا : نَوِينَا خِدْمَةَ الْمُسْلِمِينَ . فَالْمُؤْمِنُ يَخْتَارُ عَمَلَهُ وَزَوْجَتَهُ وَنَشَاطَاتِهِ وَحَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ وَفَقَّ الْهَدَفَ الْكَبِيرَ الَّذِي خُلِقَ مِنْ أَجْلِهِ . الْإِنْسَانُ إِذَا ذَهَبَ إِلَى بِلَدَةٍ أَيُّهَا الْأَخُوَّةُ ؛ وَاسْتَيْقِظَ فِي صَبِيحَةِ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ ؛ هُنَاكَ سَوْأَلٌ كَبِيرٌ كَبِيرٌ : لِمَاذَا أَنَا هُنَا فِي هَذِهِ الْبِلَدَةِ ؟ لَوْ أَنَّهُ جَاءَهَا طَالِبٌ عِلْمٍ ؛ سَيَتَحَرَّكُ ؛ وَسَيَتَوَجَّهُ ؛ وَسَتَكُونُ تَفَاصِيلُ إِقَامَتِهِ فِي هَذِهِ الْبِلَدَةِ نَحْوَ الْمَعَاهِدِ وَالْجَامِعَاتِ ؛ وَلَوْ جَاءَهَا لِيَتَاجَرَ ؛ جُزْئِيَّاتِ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ ؛ وَنَشَاطَاتِهِ وَاتِّصَالَاتِهِ نَحْوَ الْمَعَامِلِ وَالْمُؤَسَّسَاتِ ؛ وَلَوْ جَاءَ سَائِحاً ؛ لَكَانَتْ حَرَكَتُهُ نَحْوَ الْمَقَاصِفِ وَالْمَتَنَزَّهَاتِ ؛ مَتَى تَصَحَّ الْحَرَكَةُ ؟ إِذَا عُرِفَ الْهَدَفُ . فَيَا أَيُّهَا الْأَخُوَّةُ الْأَكَارِمُ ؛ الْعِلْمُ بِاللَّهِ يَسْمُو بِكُلِّ تَفَاصِيلِ حَيَاتِكَ ؛ يَسْمُو بِبَيْتِكَ ؛ يَسْمُو بِتِجَارَتِكَ ؛ يَسْمُو بِوُجُودِكَ ؛ يَسْمُو بِإِخْتِصَاصِكَ ؛ طَالِبَانُ فِي الْجَامِعَةِ ؛ طَالِبٌ عَرَفَ اللَّهَ يَدْرُسُ الطَّبَّ ؛ وَطَالِبٌ مَا عَرَفَ اللَّهَ يَدْرُسُ الطَّبَّ ؛ شَتَانٌ بَيْنَهُمَا ؛ الْأَوَّلُ يَدْرُسُ لِيَحْقُقَ رِسَالَتَهُ فِي الْحَيَاةِ ؛ لِيَكُونَ فِي خِدْمَةِ خَلْقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ لِيَتَقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ بِخِدْمَةِ خَلْقِهِ لَا لِيَبْتِزَّ أَمْوَالَهُمْ ؛ وَلَا لِيَسْتَغْلَ ثَقَّتَهُمْ بِعِلْمِهِ فَيَأْخُذَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ مَا لَا حَقَّ لَهُ ؛ مَسَافَةً كَبِيرَةً جَدًّا ؛ أَيْ مِهْنَةً ؛ أَيْ حِرْفَةً ؛ أَيْ تِجَارَةً أَسَاسَهَا إِذَا عَرَفْتَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ؛ انْسَجَمَتْ كُلُّ التَّفَاصِيلِ مَعَ هَذِهِ الْأَهْدَافِ الْكَبِيرَةِ .

التَّعَلُّمُ الطَّرِيقَ الْوَحِيدَ لِلْوُصُولِ إِلَى الْعِلْمِ :

لِذَلِكَ :

((من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين))

[البخاري عن حميد بن عبد الرحمن]

وفي رواية أخرى :

((إذا أراد الله بعبدٍ خيراً فقهه في الدين وأهله رشده))

[الدر المنثور عن ابن مسعود]

وفي زيادة لمسلم :

((إنما العلم بالتعلم))

[البخاري و الطبراني عن معاوية]

العلم بالتعلم أي الطريق الوحيد للوصول إلى العلم التعلم ؛ إنما الفقه بالتفقه ؛ إنما الحلم بالتحلم ؛ إنما الكرم بالكرم ؛ أي إنك إذا حاولت أن تكون حليماً ؛ ولو تصنعت الحلم ؛ جاهدت نفسك ؛ عندئذ يتجلى الله عليك باسم الحليم ؛ فتغدو حليماً أصيلاً ؛ كنت حليماً متكلفاً فصرت حليماً أصيلاً ؛ تكرمتم ؛ بذلت المال وفي نفسك أن يبقى عندك ؛ جاهدت نفسك وهواك ؛ حينما يرى الله منك هذه المجاهدة يتجلى عليك باسم الكريم ؛ فتغدو كريماً أصالةً لا تكلفاً ؛ طلبت العلم ؛ تعلمت العلم ؛ جلست على ركبتيك ؛ قصدت بيوت الله عز وجل ؛ تأدبت مع من تتعلم منه ؛ حينما يرى الله منك هذا الصدق يُعلمك ما لم تكن تعلم . .

((من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعمل))

[ورد في الأثر]

إذا كان هناك ما يُسمى بعلمٍ لدنيٍّ ؛ أو بيقينٍ إشراقيٍّ ؛ أو بكشفٍ كما يقول بعض العلماء ؛ إذا كان في الدين ما يشبه هذا ؛ فهو بعد أن تطلب العلم ؛ وبعد أن تطبق العلم ؛ حتى تستحق شيئاً زائداً عن جهدك الذي بذلته .

فضل العلم خيراً من فضل العبادة :

أيها الأخوة الأكارم ؛ وعن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((أفضل العبادة الفقه ؛ وأفضل الدين الورع))

[الفقيه والمتفقه للخطيب عن ابن عمر]

النبي عليه الصلاة والسلام كلّم يعلم حينما رأى رجلاً يصلي في رابعة النهار ؛ سأله عليه الصلاة والسلام : من يطعمك ؟ فقال : أخي . قال : أخوك أعبد منك . ولكن حينما شكّا شريكاً لرسول الله شريكه الذي يقصر في عمله ؛ ماذا قال له النبي عليه الصلاة والسلام ؟ كان شريكه طالب علم فقال عليه الصلاة والسلام :

((نلّك ترزق به))

[من الجامع الصغير عن أنس]

لماذا وقف النبي موقفين متباينين ؟ لماذا قال للأول : أخوك أعبد منك ؛ وطمان الثاني أنه : لعل الله يرزقك بصبرك على أخيك طالب العلم ؟ لأن طالب العلم يتعلم لغيره ؛ بينما العابد يعبد لنفسه

؛ فإذا عبد لنفسه وقصّر في حقوق الخلق ؛ صار مُلاماً عند الله عز وجل . وعن حذيفة بن اليمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

((فضل العلم خيرٌ من فضل العبادة))

[المعجم الأوسط عن حذيفة]

ولا تتسوا قول الإمام عليّ كرم الله وجهه حينما قال : "يا كميل العلم خير من المال ؛ لأن العلم يحرسك وأنت تحرس المال ؛ والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق ؛ يا كميل مات خزان المال وهم أحياء ؛ والعلماء باقون ما بقي الدهر ؛ أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة ." وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

((قليل العلم خيرٌ من كثير العبادة ؛ وكفى بالمرء فقهاً إذا عبد الله ؛ وكفى بالمرء جهلاً إذا

أعجب برأيه))

[الطبراني عن عبد الله بن عمرو]

أي إذا رأيتم إنساناً مستقيماً على أمر الله ؛ فاحكموا عليه بأنه على نوع من العلم العملي ؛ حينما استقام على أمره انطلق من علم ثمين جداً :

((كفى بالمرء علماً إذا عبد الله وكفى به جهلاً إذا أعجب برأيه))

[الطبراني عن عبد الله بن عمرو]

أي رأي هذا ؟ لو أنه أعجب برأي موافق للشريعة فلا مانع ؛ لكنه أعجب برأيه المخالف للشريعة إذا هو جاهل .

حينما تعتقد شيئاً خلاف القرآن الكريم ؛ حينما تحكم على شيء بخلاف ما حكّم الله عليه ؛ حينما ترجو شيئاً صغره الله عز وجل ؛ وحينما تزهد بشيء عظّمه الله عز وجل فأنت لا تعرف شيئاً ؛ ربما عرفت في اختصاصك ؛ أنت ذكيّ فيما أنت فيه ؛ ولكنك لست عارفاً في الحقيقة الكبرى التي وردت في القرآن الكريم . فلذلك كل إنسان مهما ارتقى في اختصاصه إن لم يعرف الله عز وجل مدموغٌ بالغباء ؛ مدموغٌ بالجهل ؛ لأن الحقيقة الكبرى التي ينبغي أن تعرفها غفّلت عنها ؛ ودققت في أمور جزئية هذه ربما لا ترقى بك إلى السعادة الأبدية .

الطرقات إلى المساجد هي الطرقات إلى الجنة :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة))

[ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه]

الإنسان أحياناً يخرج من بيته ليعقد صفقةً ؛ ليزور ؛ ليخطب ؛ ليلتقي مع صديقه؛ ليقدم دعوى على زيد أو عبيد .

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَى ﴾

[سورة الليل : ١-٤]

أما حينما تخرج من بينك لطلب العلم ؛ لا يحدوك إلا طلب العلم ؛ لا ترجو صفقةً ؛ ولا كسباً ؛ ولا مادةً ؛ ولا نفعاً ؛ ولا شيء من هذا القبيل ؛ لا تأتي إلى بيت الله إلا ابتغاء مرضاة الله ؛ لا تأتي إلى بيت الله إلا لترداد علماً بالله عز وجل ؛ فمن سلك طريقاً ؛ وقد يكون الطريق طويلاً ؛ والمواصلات صعبة أو سهلة ؛ والنفقات ؛ والوقت .

((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة))

[ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه]

طرقاتكم إلى المساجد هي طرقاتكم إلى الجنة ؛ طرقاتكم إلى بيوت الله هي طرقاتكم إلى الجنة ؛ طرقاتكم لطلب العلم طرقاتكم إلى الجنة ؛ طرقاتكم لمعرفة السنّة النبوية الشريفة طرقاتكم إلى الجنة ؛ بل إن من الاعتكاف الذي قرره الفقهاء أنك إذا دخلت بيتاً من بيوت الله وجلست تنتظر الصلاة فأنت معتكف ؛ إن صليت فأنت معتكف ؛ إن تلوت القرآن فأنت معتكف ؛ إن استمعت إلى درس علم فأنت معتكف ؛ إن قرأت كتاب تفسير فأنت معتكف ؛ إن قرأت كتاب حديث فأنت معتكف ؛ إن قرأت باباً في الفقه فأنت معتكف ؛ الدخول إلى المسجد دخول إلى بيت من بيوت الله.

((إن بيوتي في الأرض المساجد ، وإنه من توضأ فأحسن وضوءه ؛ ثم زارني في بيتي أكرمته

؛ وحق على المزور كرامة الزائر))

[من مختصر تفسير ابن كثير عن قتادة]

فأنت معتكف في المسجد ما دُمْتَ فيه ؛ تنتظر الصلاة أو تصلي ؛ تستمع إلى مجلس علم أو تقرأ كتاب علم ؛ أي نشاط متصل بمعرفة الله في المسجد هذا اعتكاف ؛ وأنت منفذ لهذه السنة التي فعلها النبي ؛ في رمضان وفي غير رمضان .

((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة))

[ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه]

تتمة هذا الحديث :

((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ؛ إلا نزلت عليهم

السكينة ؛ وغشيتهم الرحمة ؛ وحفتهم الملائكة ؛ وذكرهم الله فيمن عنده))

[ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه]

هل تريد أكثر تشجيعاً أو أكثر نجاحاً من أن تكون في عداد هؤلاء ؟ أن تكون في بيت من بيوت الله ؛ تتلو كتاب الله ؛ أو تدرسه عندئذ تحف الملائكة هؤلاء جميعاً ؛ تنزل عليهم السكينة ؛ تتغشاهم الرحمة ؛ يذكرهم الله فيمن عنده .

من عبد الله سعد بقربه في الدنيا والآخرة :

أيها الأخوة الأكارم ؛ أردت من هذه الخطبة حقيقةً واحدة أن كل حياتك التي لو بلغت ثمانين عاماً لها علةٌ واحدة ؛ لها سببٌ واحد ؛ هذا السبب هو أن تعرف الله ؛ هو أن تقدّره حقّ قدره ؛ لأنك إذا قدرته عبدته ؛ وإذا عبدته سعدت بقربه في الدنيا والآخرة .

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾

[سورة هود : ١١٩]

خلقهم ليرحمهم .

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾

[سورة آل عمران : ١٠٦]

سعادة الدنيا وسعادة الآخرة هي رحمة الله :

ثم يقول الله عز وجل :

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

[سورة آل عمران : ١٠٧]

رحمة الله أي الجنة ؛ رحمة الله في الدنيا الحفظ ؛ والسعادة ؛ والتوفيق ؛ والتسديد؛ والنصر ؛ والتأييد ؛ والسلامة ؛ رحمة الله في الدنيا شعورك بأن الله يحبك ؛ رحمة الله في الدنيا التوازن النفسي ، السكينة ، الوقار ، على كل سعادة الدنيا وسعادة الآخرة هي رحمة الله ؛ رحمة الله قريبة من المحسنين ؛ رحمة الله أساسها تقوى الله . .

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

[سورة الحجرات : ١٠]

إن اتقيتكم أن تعصوا ربكم حققتم أحد موجبات الرحمة .

﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

[سورة آل عمران : ٥٦]

إذا نفذت منهج القرآن الكريم ؛ ومنهج السنة التي بيّنت القرآن الكريم عرضت نفسك للرحمة .

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

[سورة النور : ٥٦]

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

[سورة الأعراف : ٢٠٤]

﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

[سورة الأعراف : ٥٦]

أي ترك المعاصي ، وفعل الطاعات ، وإقام الصلوات ، وتلاوة القرآن ، وفعل الخيرات هذه موجبات الرحمة ؛ وكان عليه الصلاة والسلام يدعو ويقول :

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ ؛ وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ ؛ وَالسَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ ؛ وَالْفَوْزَ بِالْجَنَّةِ ؛
وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ))

[الأذكار النووية عن أم سلمة]

قليلة القدر أيها الأخوة هي الليلة التي تتعرّف فيها إلى الله ؛ إن حصلت حصل كل شيء ؛ نلت كل شيء ؛ " ابن آدم اطلبني تجدني ؛ فإذا وجدته وجدت كل شيء ؛ وإن فتك فاتك كل شيء " ما حصلت شيئاً لأن الموت ينهي الدنيا بأكملها ولو كنت في أعلى درجاتها ؛ الموت نهاية كل حي .

كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت

* * *

الليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر

* * *

فالعطاء في الدنيا لا يسمّى عطاءً لأنه ينتهي بالموت ؛ الكريم لا يعطي عطاءً ينتهي بالموت ؛ فإذا رضي الإنسان بالدنيا فقد ضيّع عليه الشيء الكثير . .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ
الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

[سورة التوبة: ٣٨]

﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾

[سورة النساء: ٧٧]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

[سورة الأنفال: ٢٤]

طاعة الله مرهونة بمعرفته ومعرفته مرهونة بتقديره حق قدره :

أيها الأخوة الأكارم ؛ سعادة الآخرة ، وسعادة الدنيا بطاعة الله ؛ وطاعته مرهونة بمعرفته ، ومعرفته مرهونة بتقديره حق قدره ؛ بخشيته . .

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾

[سورة فاطر: ٢٨]

العلماء وحدهم وليس أحد سواهم يخشون الله ؛ العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلّك ؛ فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً .

أيها الأخوة الكرام ؛ حينما يقول أحدهم : لست متفرغاً لمجالس العلم . يخطر في بالي المثل ؛ أنت متفرغٌ لماذا إذا ؟ ما الشيء الذي يعلو على طلب العلم ؟ ما الشيء الذي ينفك أكثر من طلب العلم ؟ ما الشيء الذي يقربك أكثر من طلب العلم ؟ طلب العلم هو الطريق الوحيدة إلى سعادة الدنيا والآخرة ؛ لأن العلم طريق الجنة .

أيها الأخوة الأكارم ؛ حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ؛ وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم ؛ واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا وسيتخطى غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا ؛ الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ؛ والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى .

* * *

الخطبة الثانية :

أشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، صاحب الخلق العظيم ، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

ما نفعه في ليلة القدر :

أيها الأخوة الأكارم ؛ بفضل الله تعالى أقيمت في هذا المسجد صلاة التراويح على مدى هذا الشهر الكريم ؛ وتكرم الله علينا وأعاننا على أن نقرأ كل يوم جزءاً من كتاب الله . وفي هذا اليوم الذي يقع في ليلة القدر كما وردت في الأحاديث الصحيحة ننهي ختمة القرآن الكريمة ؛ ونحیی بعض الليل ؛ بتلاوة ؛ وصلاة تهجد ؛ وقيام ليل ؛ وذكر إن شاء الله ؛ فمن أراد أن يحيي هذه الليلة فليكن بيننا ؛ فلعل الله سبحانه وتعالى يتجلى علينا في هذه الليلة فنقدر الله حق قدره ونتعرف عليه .

شيء آخر أيها الأخوة . . . قد جرت العادة في كل عام أن نلتقي في هذا المسجد في ثاني يوم من أيام العيد ؛ لأن زيارات الأخوة الأكارم المؤمنين فيما بينهم تستهلك جل وقتهم .

والحمد لله رب العالمين